المجلد:18 العدد: 01/ سبتمبر 2022
ص: 370 - 385
ISSN: 1112-7015
EISSN: 2602-5973

القصدية والاستعمال في الخطاب البلاغي بين الأصالة والإبداع -دراسة بينية-

INTENTION AND USE IN RHETORICAL DISCOURSE BETWEEN TRADITION AND CREATIVITY -AN INTERDISCIPLINARY STUDY–

*[1]، عائشة برارات
[1] جامعة غرداية ،الجزائر
البريد المهني bararat.aicha@univ- ghardaia.dz

تاريخ الإرسال: 2022/04/18	تاريخ القبول:2022/09/06	تاريخ النشر: 2022/09/18

****

ملخص:

لم تكن المقولات التخاطبية بعيدة عن الفكر البلاغي شأنها شأن الاهتمام بالجوانب الجمالية والإقناعية في النصوص مما يثبت أصالة ذلك في البلاغة العربية ، بل يتجاوزه إلى الإبداع والأسبقية مع مراعاة الخصوصية.

من هذا المنطلق يتمّ التركيز على ثنائية (القصدية والاستعمال) وتطبيقاتها المختلفة عند البلاغيين حيث يتأكّد الوعي بقيمة المعنى بدءا من كيفية الإنتاج عند المتكلم إلى آليات الفهم عند السامع مع الالتفات إلى الملابسات والأحوال التي تعدّ من ضرورات ذلك الوعي..

وبما أنّ الدراسة البينية ترى أنّ مكونات العالم جميعها منفتحة بعضها على بعض مما يستدعي إعادة بناء منظومة جديدة قائمة على الاتصال دون الانفصال المفاهيمي والمصطلحي الموضوعي والمنهجي قبل كل شيء ، فقد اخترناها للجمع بين البعدين البلاغي القديم والتداولي الحديث في دراسة اللغة بعيدا عن الدراسة التقليدية أو الإسقاطية.

الكلمات المفتاحية:

القصدية; الاستعمال; الخطاب البلاغي; التداولية; السياق

ABSTRACT

Rhetorical reflection has been concerned with the onversational saying as well as with its aesthetic and argumentative aspects as a choice well rooted in the history of Arabic rhetoric and well open to the creativity and specificity of the text. This is why the emphasis will be placed on the duality (intention and use) and its various applications according to the rhetoricians. It is therefore a question of an awareness of the value of meaning and the way in which it is produced by the sender and how it is interpreted by the recipient with consideration of the context and the circumstances of production. This choice is still inspired by a multidimensional analytical look articulating the language product to its production context, especially through a reconstruction of concepts and methods inspired by traditional rhetoric and contemporary pragmatics.

Keywords: **Intention - use - rhetorical discourse - pragmatics - context**

المقال: (**Sakkal majalla** (16); interlignes: 1)

* المؤلف المرسل : عائشة برارات

1. مقدمة:

الهدف من هذا المقال التأكيد على أنّ المقولات التخاطبية لم تكن بعيدة عن الفكر البلاغي شأنها شأن الاهتمام بالجوانب الجمالية والإقناعية في النصوص مما يثبت أصالة ذلك في البلاغة العربية بل يتجاوزه إلى الإبداع والأسبقية مع مراعاة الخصوصية.

من هذا المنطلق يتمّ التركيز على ثنائية (القصدية والاستعمال) وتطبيقاتها المختلفة عند البلاغيين حيث يتأكّد الوعي بقيمة المعنى بدءا من كيفية الإنتاج عند المتكلم إلى آليات الفهم عند السامع مع الالتفات إلى الملابسات والأحوال التي تعدّ من ضرورات ذلك الوعي.

وبما أنّ الدراسة البينية ترى أنّ مكونات العالم جميعها منفتحة بعضها على بعض مما يستدعي إعادة بناء منظومة جديدة قائمة على الاتصال دون الانفصال المفاهيمي والمصطلحي الموضوعي والمنهجي قبل كل شيء فقد اخترناها للجمع بين البعدين البلاغي القديم والتداولي الحديث في دراسة اللغة بعيدا عن الدراسة التقليدية أو الإسقاطية.

مِن هنا نصوغ الإشكالية التالية: كيف تتجسّد القصدية والاستعمال في الخطاب البلاغي؟ وإلى أيّ مدي يمكن وصْف تطبيقات البلاغيين لذلك المبدأين بالأصالة والإبداع ؟ ما فاعلية الدراسة البينية في إبراز التقاطعات المعرفية بين التراث العربي واللسانيات الغربية رغم الاختلافات والخصوصية؟

إنّ البحث في المقولات التخاطبية الموجودة في البلاغة العربية يستدعي تفحص الجوانب التنظيرية والإجرائية التي ارتبطت بفهم لغة القرآن ، وتفاصيل العربية في بيانها ورونقها وحسنها ، ومن أجل هذه الغاية سلكوا مسالك كثيرة يظهر فيها الالتزام بالدقة ، والسبْق لزمانهم – إن صح القول –لاسيّما في البعد التداولي؛ حيث تظهر ثنائية القصدية والاستعمال بشكل كبير في عباراتهم تصريحا وتوضيحا وتأكيدا.

2. معطيات التراث وتجربة الآخر:

من البداية يجب أن نوضح المرتكزات العلمية في دراسة الأنا بالآخر؛ فـ"الانطلاق من التراث العربي لا على أنه تراث عربي فحسب بل على أساس أنه تراث إنساني أيضا يُغني النظرية اللسانية الحديثة ويعطيها بُعدا فكريا عميقا"[1]، ذلك يعني أنّ التعامل مع التراث بوصفه إنسانيا ينفي عنه تلك النظرة الدونية أولا ، ويفتح مجال الاستفادة منه في تطوير وترقية المناهج اللسانية ثانيا ، من خلال إعادة القراءة والإحياء لهذا التراث، ثم" إنّ هذه الإعادة المنشودة لا تعني بالضرورة إسقاط الآراء الحديثة ، فتلك النظريات قد تطوّرت في لغتها وفي سياقها الحضاري ومناخها الفكري والثقافي ... كما لا يجب الاكتفاء بما توارثناه كونه يحقّق الكفاية ، وإنما ينبغي أن تكون هناك نظرية خاصّة تقوم على معطيات من التراث وتجارب الآخرين"[2].

إنّ مشروع الإعادة يتطلّب توفّر الشروط التالية:

- كلّ نظرية هي وليدة عصرها ، في مختلف مستوياتها ؛ إن على مستوى اللغة ، أو المناخ الفكري والسياق الحضاري الذي نشأت فيه وتطورت .
- عدم الاكتفاء بهذا الموروث مهما تعدّدت أشكاله ، بما يعنى التقوقع داخله تقديسا ، وانبهارا وتحيزا .
- معرفة جدلية العلاقة الرابطة بين معطيات التراث ومعطيات النظريات الأخرى باعتبارها حقائق وتصورات علمية ، ذلك أنّ " العقل العربي مارس كلّ ألوان الاجتهاد وأنواعه، وبعض هذه الاجتهادات كانت حَرِيّة بالتطوير والإثراء؛ وليس التجاهل الاحتقار"[3].

وفي هذا السياق المعرفي نجد عند البلاغيين تطبيقات مستفيضة لمفهومي القصدية والاستعمال، وهما من المفاهيم التي تتقاطع مع التداولية، فقد وضع البلاغيون عدّة معايير للتمييز بين الخبر والإنشاء كقبول الصدق والكذب ، ومطابقة النسبة الخارجية للنسبة الكلامية ، والقصدية[4].

كما جعلوا "من تمام آلات البلاغة التوسّع في معرفة العربية ووجوه الاستعمال لها، والعلم بفاخر الألفاظ ، وساقطها ومتخيّرها ، ورديئها ، ومعرفة المقامات ، وما يصلح في كلّ واحد منها في الكلام"[5].

والنصوص الواردة في فضل معرفة المقاصد والاستعمالات متواترة في مختلف الأبواب البلاغية فهذا أبو هلال العسكري في صيغة تعليمية يقرّر ويؤكّد ، " واعلم أنّ المنفعة مع موافقة الحال ، وما يجب لكلّ مقام من مقال"[6] ؛ إذ ترتبط المنفعة بقدر الاحتياج الذي يوافق الأحوال ، ثم يأتي المقال بحسب ذلك في شكل تسلسلي ينبئ عن تنظيم العملية التواصلية ، والوعي التام بقوانين التخاطب.

ومن الأمثلة أيضا تحديد الإيجاز والإطناب بحسب الاحتياجات والمواضع ، يقول أبو هلال العسكري: "والقول القصد أنّ الإيجاز والإطناب يُحتاج إليهما في جميع الكلام، وكلّ نوع منه، ولكلّ واحد منهما موضع. فالحاجة إلى الإيجاز في موضعه كالحاجة إلى الإطناب في مكانه، فمن أزال التدبير في ذلك عن جهته ، واستعمل الإطناب في موضع الإيجاز ، واستعمل الإيجاز في موضع الإطناب أخطأ"[7] ، ألا ترى أنّ قيمة الاستعمال تظهر في كونه شرطا أساسيا في الحكم على الكلام بصوابيته أو خطئه ، وبحسن التدبير من إزالته ، فحين يختل هذا الشرط ، ونضع الكلام في غير موضعه ينسب إلى صاحبه الخطأ بل- أحيانا- يتجاوز ذلك إلى الطعن في الفصاحة.

وقد يرتبط تغيير الاستعمال بقصد ما ، مثال ذلك تعريف الاستعارة بوصفها" نقل العبارة عن موضع استعمالها في أصل اللّغة إلى غيره لغرض ، وذلك الغرض إمّا أن شرح المعنى وفضل الإبانة عنه أو تأكيده والمبالغة فيه ، أو الإشارة إليه بالقليل من اللفظ ، أو تحسين المعرض الذي يبرز فيه ، وهذه الأوصاف موجودة في الاستعارة المصيبة ، ولولا أنّ الاستعارة المصيبة تتضمن ما لا تتضمنه الحقيقة من زيادة فائدة لكانت الحقيقة أولى منها استعمالا"[8]، فانظر هذا الربط الدقيق والعميق بين الاستعمال وزيادة الفائدة ؛ ليكون فارقا بين الحقيقة والمجاز أولا، و من أجل إصابة المعنى بيّنا واضحا ثانيا ، وليكون الانتقال من أصل اللغة إلى غيره انتقالا مبررًا يمكن الاستدلال عليه لا عشوائيا.

ناهيك عن التمييز بين الصيغة الصورية والصيغة الإنجازية من خلال الربط المفهومي الثلاثي للمصطلحات(المواضعة / القصد/ الاستعمال) ، يقول ابن سنان الخفاجي: "وبعد وقوع التواضع يحتاج إلى قصْد المتكلم له ، واستعماله فيما قرّرته المواضعة ولا يلزم على هذا أن تكون المواضعة لا تأثير لها ، لأنّ فائدة المواضعة تمييز الصيغة التي متى أردنا أن نأمر قصدناها ، وفائدة القصْد أن تتعلّق بالمأمور ، وتؤثر في كونه أمرا به ، فالمواضعة تجري مجرى شحذ السكين وتقويم الآلات ، والقصد يجري مجرى استعمال الآلات بحسب ذلك الإعداد"[9]، هذا التمييز لم نعرفه نظريا إلا مع التداولية ، لكننا عرفناه إجرائيا مع البلاغة العربية ، وبهذا نستطيع القول بأنّ كلّ محاولة إسقاطية هي محاولة فاشلة بالضرورة ، لكنّ المقاربة ليست استحالة لاسيّما إذا استندنا إلى الممارسة البينية .

3. اجتماعية اللغة بين الوظيفة والاستعمال:

منَ الخصائص اللصيقة باللغة كونها اجتماعية ، وهي بذلك تؤدّي وظيفة ما في إطار استعمال معيّن، " فالإنسان لا يستعمل العبارات اللغوية إلاّ بدافع الحاجة التواصلية ، فالدلالة على ما في النفس تولّد الحاجة إلى القول ، ومن الحاجة إلى القول تتولّد العبارة اللغوية ، وبعبارة أخرى : إنّ الإنسان لا يتكلّم إلاّ لأنّ في نفسه حاجة إلى القول تقتضي الدلالة على ما في نفسه والإفصاح عمّا بداخله "[10]؛ إذ إنّ وظيفة الإفصاح مبنية على الحاجات(نفسية/تعبيرية انفعالية/تأثيرية...) ، والحاجات تُترجَم إلى عبارات وخطابات ، وهذا ما أوضحته اللسانيات في دورة التخاطب من خلال العلاقة المتبادلة بين المتكلم والسامع اتجاه المخزون اللغوي إذ تصبح اللغة امتدادا لا نهاية له من الوظائف بالتركيز على جانبها الاجتماعي والاستعمالي الذي يتصف بكونه إجرائيا انطلاقا من جانبها النفسي التأسيسي.

هذه الحقيقة (كون اللغة مؤسّسة اجتماعية)لم تكن غائبة بل معشّشة في فكر البلاغين ،" لأنّ مدار الأمر والغاية التي يجري إليها القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام"[11] ، ولن تتحقّق هذه الوظيفة إلاّ بشرط الاستعمال الذي تترتّب عنه آثار سلبية عند انتهاكه ، وإيجابية عند مراعاته ،يقول الخطابي:" اعلم أنّ

عمود هذه البلاغة التي تجمع لها هذه الصفات هو وضع كلّ نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخصّ الأشكل به ، الذي إذا أبدل مكانه غيره جاء منه: إمّا تبدّل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام ، وإمّا ذهاب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة"[12].

وليس هناك تطبيق أشدّ وضوحا من فكرة الوجوه والفروق لتأكيد اجتماعية اللغة بين الوظيفة والاستعمال ، حيث تتوفّر عندنا أشكال تعبيرية خاصة ومعاني بلاغية مختلفة ، أين يتجسّد الاشتراك والخصوصية في المعنى بواسطة النظم ، فـ"مفهوم النظم يتسع ويتدرّج ليشمل ويستوعب كلّ أنواع الخطاب ما يقتصر منها على تحقيق التواصل والإعلام ، وما يتجاوز هذا متضمّنا إياه إلى تحقيق التأثير والفعالية"[13].

هكذا تتجلّى وظيفة اللغة من خلال استعمالاتها المتنوّعة ، وتلك الاستعمالات تعكس بشكل جوهري الأبعاد الاجتماعية المتضمّنة فيها والمؤدّية إليها كأنها الوسيلة والغاية في نفس الوقت ، "إنّنا لا نستعمل اللغة إلاّ في إطارها الاجتماعي ، وهذا الاستعمال مرهون إلى حدّ كبير ببعض المكوّنات التي لا يستقيم الرمز اللغوي من دونها ، ولا يتمّ التواصل الصحيح الناقل للأفكار والمعبّر عن الحاجات[14].

إنّ الطابع الاجتماعي للغة ليس بالحاجة إلى البرهنة عليه ، فهو واقع ملموس نعاينه في حياتنا اليومية ، لكن يجب البحث في مكامن الاستعمال ومحاولة التقعيد له من قبل البلاغيين وما يكتسي ذلك من مرونة .

4. المقام من المعيار إلى الاستعمال:

أعطى تمام حسان (المقام) أهمية قصوى في دراساته، إذ يجب الاعتراف من البداية بأنّ المقام ليس نظرية معيارية بل هو وصف لمجريات القول، فـ"لقد كان البلاغيون عند اعترافهم بفكرة المقام متقدّمين ألف سنة تقريبا على زمانهم ، لأنّ الاعتراف بهذه الفكرة بوصفها أساسا هامّا من أسس تحليل المعنى تعدّ الآن من الكشوف الحديثة عند الغرب"[15]، هذا الاعتراف والسبْق في جعْل المقام أساسا من أسس تحليل المعنى ، يقوم على وصْف الاستعمالات المختلفة للغة ، فـ "حين قال البلاغيون: لكلّ مقام مقال ولكلّ كلمة مع صاحبتها مقام ، وقعوا على عبارتين من جوامع الكلِم تصدقان على دراسة المعنى في كلّ اللّغات لا في العربية الفصحى فقط ، وتصلحان للتطبيق في إطار كلّ الثقافات على حدّ سواء"[16]، و على هذا يصبح " المقام ليس إطارا ولا قالبا وإنما هو جملة الموقف المتحرّك الاجتماعي الذي يُعتبر المتكلم جزءا منه ،كما يعتبر السامع والكلام نفسه وغير ذلك مما له اتصال بالمتكلم"[17].

إنّ هذه التصريحات هي بمثابة قواعد كلّية تبرهن – قطعا- التفات البلاغين إلى المكونات اللغوية وغير اللغوية الكفيلة بإيصال المعنى إلى قلب السامع في أحسن صورة ، والتي جاءت موافقة للتصور اللساني الحديث ، جعلت تمام حسان يصوغ مجموعة من التوجيهات ينبغي التفحص فيها:

- الوصول إلى المعنى يستدعي ملاحظة العنصر الاجتماعي ، فربْط المقال بالمقام الذي يجري فيه يحقّق غاية الأداء.
- كلّما كان وصف المقام أكثر تفصيلا كان المعنى الدلالي الذي نريد الوصول إليه أكثر وضوحا[18].
- إنّ الفهم الشامل لفكرة المقام يفترض النص (المقال) منطوقا كان أو مكتوبا غير منبتّ عن سياقه ومن سيق له ، ولو أننا حاولنا فهْم المقال منفصلا عن المقام لجاء فهمنا إياه قاصرا مبتورا أو خاطئا[19].

هكذا يتّضح أنه لابدّ من وجود العنصر الاجتماعي (المقام) الذي قوامه التدقيق في الاستعمالات المختلفة لا المعيار من أجل الوصول إلى المعنى الذي تحمله التراكيب بشكل واضح ، فـ" لا يمكن إنكار ما لسياق النص اللغوي ، وسياق الموقف الملابس للنص ، من تأثير على العناصر النحوية من حيث الذكر والحذف ، والتقديم والتأخير ، كما لا ينكر ما للسياق من دور في تغيير معنى الجملة ذات الصيغة

التركيبية الواحدة بمفرداتها نفسها ، إذا قيلت بنصّها في مواقف مختلفة ، وذلك يعود إلى اختلاف السياق الذي ترِد فيه ، مهما كانت بساطة هذه الجملة وسذاجتها[20] ، فتتنوّع هيئات المقال طِبقا لتنوّع المقامات ، وتتنوّع معاني الجملة الواحدة وِفقا لرصْد الاستعمالات.

يقول الجاحظ:« ولكلّ ضرْب من الحديث ضرْب من اللفظ ، ولكلّ نوْع من المعاني نوْع من الأسماء ، فالسّخيف للسّخيف والخفيف للخفيف ، والجزْل للجزْل ، والإفصاح في موضع الإفصاح والكناية في موضع الكناية ، والاسترسال في موضع الاسترسال»[21] ، وبناءً على ذلك يضع عبارة من جوامع الكلم مفادها بأنّ " كلام الناس طبقات كما أنّ الناس أنفسهم طبقات" مؤكّدا الصّلة الوثيقة بين التراكيب واستعمالاتها كمبدإ أساسي يردّدونه ويطبقونه في وصف الكلام بالحسن وارتفاع الشأن أو القبح والرداءة ، فـ" لكلّ مقام مقال " و" لكلّ كلمة مع صاحبتها مقام "، يوضح ذلك السكاكي بقوله:« ولا يخفى عليك أنّ مقامات الكلام متفاوتة فمقام التشكّر يباين مقام الشكاية ومقام التهنئة يباين مقام التعزية ، ومقام المدح يباين مقام الذمّ ، ومقام الترغيب يباين مقام الترهيب ومقام الجدّ في جميع ذلك يباين مقام الهزل ، وكذا مقام الكلام ابتداءً يغاير مقام الكلام بناءً على الاستخبار أو الإنكار ، ومقام البناء على السؤال يغاير مقام البناء على الإنكار ، جميع ذلك معلوم لكلّ لبيب ، وكذا مقام الكلام مع الذكي يغاير مقام الكلام مع الغبي ، ولكلّ من ذلك مقتضى غير مقتضى الآخر»[22]، إذ لا يمكن حصْر المقامات؛ لأنها تتصف بالتغيّر فهي تابعة للاستعمال ، وبالتالي ينتفي القول بمعيارية المقام.

لقد ربط السكاكي مقامات الكلام بالمقتضيات ، وسنلاحظ في موضع لاحق(المقولات التخاطبية في البلاغة العربية -تطبيقات ونماذج-) إلى أيّ مدى كان التفسير في مواضع الكلام مبنيا على الاستعمال ومراعاة المقاصد، وبذلك كان تفسيرا تداوليا عربيا أصيلا.

5. أدوات بناء الخطاب: (القصديات/ الاعتبارات/الملابسات)

معلوم أنّ العرب تكلّمت على سجيّتها ، وذلك من شواهد الحكمة المنسوبة إليها ، فجمعوا بين اللفظ والمعنى ، في ثلاثية متوازنة الأطراف ؛ إذ تشمل: قصد المتكلم / حال السامع/ الملابسات ، فـ "المتصرّف في هذه المعاني لا يخلو من أن يكون مثبتا لشيء ببعض تلك الاعتبارات أو مبطلا أو مسوّيا بين شيئين ،أو مباينا بينهما ، أو مرجّحا ، أو متشكّكا ، ولا يخلو من أن يكون معمّما أو خاصّا حاصرا أو غير حاصر ، أخذا للشّيء بجملته أو محاشيا بعضه ، وللعبارة عن جميع ذلك أدوات وُضعت للاختصار وقد يُعبّر عن جميع ذلك بغير تلك الأدوات ، فهي وأشباهها من المعاني التي تدلّ على مقاصد المتكلم ، واعتقاداته وأحكامه في التّصورات والتصديقات المتعلّقة بغرضه معانٍ ثوانٍ ينوطها بمعاني كلامه لتبين فيها أحكاما وشروطا"[23]، فلا بدّمن وجود قصديات ما تحتكم إلى اعتبارات معينة تسمح باستخدام أدوات مختلفة في الكشف عن المعنى ؛ أي مراعاة جميع الجوانب في حصول الفهم فـ" التركيب ليس إلاّ نتاجا للقصد"[24].

من هذا المنطلق نلاحظ توسُّع البلاغيين في تفسير الكلام بناءً على هذه المعطيات، يقول الجاحظ:"لا خير في كلام لا يدلّ على معناك ولا يشير إلى مغزاك ، وإلى العمود الذي إليه قصدت والغرض الذي إليه نزعت"[25]، تتحدّد هنا أهمية القصد في الدلالة على المعنى ، إذ إنّ الكلام بدون توفّر هذه الضوابط(القصد/ الهدف/ الاستعمال)لا فائدة منه ، ولا يحقّق وظيفته المنوطة به، بذلك تصبح "المواضعة تابعة للأغراض ؛ لأنّ العبارة إذا لم تتضمّن هذا المبدأ (مبدأ القصد) لم تتم عملية الاتصال بين المتكلم والمتلقي"[26] لذا تجد البلاغيين يرددّون ذكْر عناصر التواصل في أبوابهم المختلفة بدءا من تعريف البلاغة في حدّ ذاتها، فـ" المتكلم يمثل من النظرية البلاغية منزلة مرموقة فهو طرف أساسي في عملية الكلام وعنصر فعّال في تحديد خصائص النص إذْ على عاتقه تقع كُلْفة إخراجه على سمْت يستجيب لمقتضيات الوظيفة ، والإبانة ، والمقام...كما يُعتبر المخاطب قطْبا آخر من أقطاب العملية

التواصلية فمراعاته ومراعاة مقامه وجلْب انتباهه مما يؤثّر في تركيب الجمل وحشْر مكوناتها وفق ترتيب معيّن كما أنّ عدم اعتبار المخاطب قد يؤدّي إلى خلْق حالة فيه معاكسة تماما لما كان المتكلم يروم فيه"[27].

إنّ النصّ السابق يحيطنا بمجموعة من المعطيات:

- لابدّ أن يخضع إنتاج الكلام لشروط الاستعمال المتمثلة في : الوظيفة ، الإبانة ، المقام.
- كلّ ترتيب معيّن يرجع إلى اعتبار المخاطب.
- الوصول إلى المعنى الصحيح عملية معقدة تستجيب لخصائص النص والمقاصد.

ذلك أنّ توجيه الدلالة على اختلاف الصوّر التي يأتي عليها اللفظ محكوم بتلك الهيئات"حتى أصبح اختيار استراتيجية الخطاب للتعبير عن القصد هي الخطوة الأولى عند المرسل في الإنتاج، وعند المرسل إليه في التأويل ، فالمقاصد هي لبّ العملية التواصلية"[28]، وبالتالي عملية بناء الخطاب مرهونة إلى أقصى درجة بـ:

غرض المتكلم +حال السامع + الملابسات = الاستعمال

وبإلقاء نظرة بسيطة نجد نظرية النظم عند الجرجاني في جوهرها قد " كشفت عن علاقة المتكلم بالمتلقي من خلال شبكة العناصر المكوّنة للحدث الكلامي من متكلم ونص، ومقام يمثل صلة التواصل بين المتكلم والمخاطب فالكلام لا تحدّده مقاصد المتكلم وحسب، و إنما تتدخّل مقاصد المتلقي لتوجّه آلية الكلام، وتربطه بما يسمى المقام؛ إذ ينطلق الكلام من المتكلم ليتفاعل مع معطيات قد استقرت بين المتحاورين[29] إنها نظرية تقوم على التفاعل بين العناصر المختلفة بتطبيق معاني النحو من أجل تبيين الدلالات في إطار يتجاوز الصحة إلى الفضل والمزية.

وعلى هذا يمكن أن نفسّر كيفية النظم بتلاحم الدّلالات مع المعاني المختزنة في النفس؛ من خلال عمليتين:" الأولى غير لغوية نفسية ، تدور في الذهن حيث يحدث التلاؤم بين المعنى واللفظ ، أو ما يُطلق عليها عملية الاختيار ، تعقبها الثانية وهي عملية لغوية منطوقة ، أو بدايتها النطق حيث يوجد التأليف ، أو ما يُطلق عليها عملية التأليف "[30]؛ إذ إنّ "العلم بمواقع المعاني في النفس علم بمواقع الألفاظ الدالة عليها في النطق"[31]، حيث يتمّ الانتقال من المستوى التجريدي الصوري(النفسي) ابتداء من وقوع قصد المتكلم إلى العلاقات الحضورية في التركيب عن طريق الاستعمال.

من هنا تصبح ثنائية المادة والشكل ثنائية تكاملية وليست ضدية عند الجرجاني تبيّن مزايا النظم ومراتبه بواسطة التحام " الكيان اللغوي المادي بكيان آخر هو الغاية أو الغرض أو القصد ، إذ يرمي من درس المعنى الأوّل للظاهر الوصول إلى المعنى الثاني غير الظّـاهر و الكشف عنه ، لأنه العلة الحقيقية لتحديد كيفية اختلاف النظم وتفسير مواطن الإعجاز"[32].

إنّ كتاب دلائل الإعجاز نموذج للمقولات التخاطبية ذات البعد التداولي ، فلا تخلو صفحة من صفحاته إلا ونجد القصدية أو الملابسات ، أو حال السامع ، فدائما هناك حاجة إلى ما يتمم المعنى ويحقّق الفائدة ، " فقد أجمع العقلاء على أنّ العلم بمقاصد الناس في محاوراتهم علم ضرورة " وبهذا تتحقّق وظيفة اللغة ، ذلك أنّ " الناس إنما يكلّم بعضهم بعضا ليعرف السامع غرض المتكلم ومقصوده"[33]، في إطار ما يمكن تسميته بـ: نظرية القصدية ، أو في مستوى أعلى بـ: نظرية الاستعمال، فنظرية النظم " تسعى إلى قمة سواء سميت بالقصد أو الغرض أو معنى المعنى ، ولا تُدرك تلك القمة إلاّ من خلال تفاعلات متواصلة للدلالات المتشابكة بدءا من دلالات الألفاظ فدلالات العلاقات النحوية ، فدلالات المقام والأحوال "[34] ، أو بمعنى آخر "ارتباط مستوى الواقع اللغوي بمستوى آخر غير لغوي هو المعاني النفسية المرتبطة بقصد المتكلم ، وهذا ما يؤكّد خصوصية هذه النظرية وتميّزها"[35].

وجدير بالذكر أنّ هناك الكثير من المؤلفات البلاغية التي جسّدت نظرية الاستعمال اللغوي في مستويات التحليل اللساني المختلفة منها: منهاج البلغاء لحازم القرطاجني، وسر الفصاحة لابن سنان الخفاجي...وغيره.

6. المقولات التخاطبية في البلاغة العربية (تطبيقات ونماذج):

في هذا الجزء من المقال نحاول إيراد بعض التطبيقات والنماذج التي تشتمل على مقولتي القصدية والاستعمال.

1.6 اعتبارات الإسناد الخبري(التفريق بين ضروب الخبر) :

حين يريد المتكلم إنشاء خطاب ما ، فهو على وعي بمقاصده ، لكن تلك المقاصد لا تحقّق الكفاية لوحدها مما يستدعي أن ينظر إلى حال المخاطب بشكل أساسي(خالي الذهن/ شاكّ/منكر) فيختار من الأدوات ما يلائم ، وينسج من العبارات ما يفيد ، يقول السكاكي:« من المعلوم أنّ حكم العقل حال إطلاق اللسان ، هو أن يفرغ المتكلم في قالب الإفادة ما ينطق به تحاشيا عن وصمة اللاغبة ، فإذا اندفع في الكلام مخبرا ، لزم أن يكون قصْده في حكمه بالمسند للمسند إليه في خبره ذاك ، إفادته للمخاطب ، متعاطيا مناطها بقدر الافتقار .فإذا ألقى الجملة الخبرية إلى من هو خالي الذهن عما يلقي إليه ، ليحضر طرفاها عنده وينتقش في ذهنه استناد أحدهما إلى الآخر ثبوتا أو انتفاء ، كفى في ذلك الانتقاش حكمه ، ويتمكّن لمصادفته إيّاه خاليا فتستغني الجملة عن مؤكّدات الحكم ، وسمي هذا النوع من الخبر: ابتدائيا ، وإذا ألقاها إلى طالب لها ، متحير طرفاها عنده دون الاستناد فهو منه بيْن بيْن ، لينقذه عن ورطة الحيرة ، استحسن تقوية المنقذ بإدخال اللام في الجملة ، أو (إنّ)، كنحو: (لزيد عارف) أو (إنّ زيدا عارف). وسمي هذا النوع من الخبر: طلبيا ، وإذا ألقاها إلى حاكم فيها بخلافه ، ليردّه إلى حكم نفسه ، استوجب حكمه ليترجّح تأكيدا بحسب ما أُشرب المخالف الإنكار في اعتقاده كنحو: (إني صادق) ، لمن ينكر صدقك إنكارا ،و(إني لصادق) ، لمن يبالغ في إنكار صدقك ، و(والله إني لصادق على هذا) ، ويسمى هذا النوع من الخبر: إنكاريا»[36].

يقدّم السكاكي معادلة هامة مفادها أنّ الاستعمال هو وسيلة وغاية في نفس الوقت؛ وسيلة من أجل تحقيق الفائدة ، ليُصبح فيما بعد غاية حين يكون صحيحا دقيقا مستوفيا للمعنى باجتماع تلك العناصر ، ويمكن توضيح ذلك في المخطط التالي:

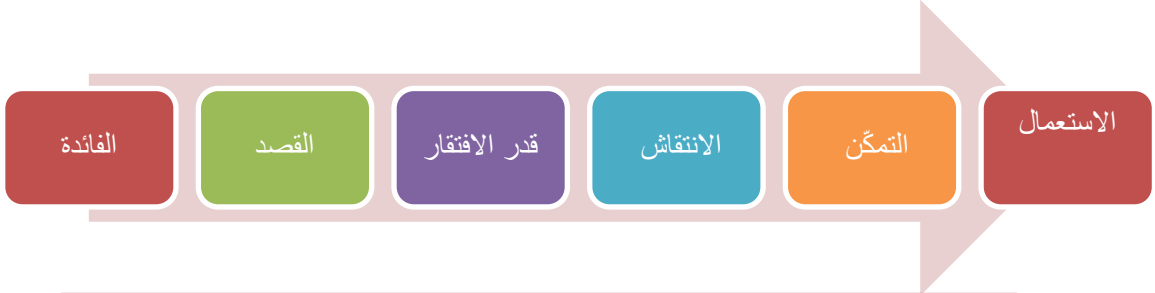

الشكل1: مخطط توضيحي لوسائل استيفاء المعنى عند السكاكي

بينما ركّز الجرجاني على الخواص والمزايا ، فمِن" شأْن المعاني أن تختلف عليها الصوّر ، وتحدث فيها خواص ومزايا مِن بعد أن لا تكون"[37]، ويورد لإثبات ذلك قصة الكندي وما توهّمه من حشو في كلام العرب، روي عن ابن الأنباري أنه قال: ركب الكندي المتفلسف إلى أبي العباس وقال له: إني لأجد في كلام العرب حشوا! فقال له أبو العباس: في أيّ موضع وجدت ذلك ؟فقال: أجد العرب يقولون:(عبد الله قائم) ، ثم يقولون:(إنّ عبد الله قائم) ، ثم يقولون:(إنّ عبد الله لقائم)، فالألفاظ متكرّرة والمعنى واحد .فقال أبو العباس: بل المعاني مختلفة لاختلاف الألفاظ ، فقولهم:(عبد الله قائم) إخبار عن قيامه ، وقولهم:(إنّ عبد الله قائم) ، جواب عن سؤال سائل وقولهم:(إنّ عبد الله لقائم) جواب عن إنكار منكرٍ قيامَه ، فقد تكرّرت الألفاظ لتكرّر المعاني"[38].

إنّ هذا النص يحيل إلى مجموعة من القواعد الصارمة :

- تتكرّر الألفاظ لتكرّر المعاني، إنها العبارة اللسانية المشهورة " لا يوجد في اللغة إلاّ الاختلافات".
- لا حشْو في كلام العرب لتنافي ذلك مع الإفادة والقصد.
- يجب معرفة نظام الاستعمال شأنه شأن نظام القواعد، وبذلك تحدث المزية ويقع التفاضل .

2.6 الصورة الخاصة والمقتضيات(إخراج الكلام على غير مقتضى الظاهر):

جاء في تحديد مفهوم (مقتضى الحال) أنه : الاعتبار المناسب ، أو هو الاعتبار المعيّن الذي يستدعي مجيء الكلام على صفة مخصوصة مناسبة للحال ، كالتأكيد في حال الإنكار والتردّد مثلا[39]، و هنا تتمّ عملية إنزال المنزلة بالرجوع إلى تلك الاعتبارات والمتتبع لكتب البلاغة يجدها مليئة بالأمثلة حيث تعكس الصور الخاصة "النظر الصحيح في إيجاد الفكر الصحيح المناسب لـمقتضى الحال ، أو الاهتداء إلى ما يمكّن من جعل الصورة اللفظية الخارجية أقرب ما تكون إلى صورة الفكر الداخلية كما هي في ذهن الـمتكلم "[40].

3.6 مراتب تحصيل المعنى(انتفاء الفصاحة وتعقيد الكلام):

يتمّ تحصيل المعنى وفق مراتب تتحقّق معها الفصاحة، لذا ميز البلاغيون بين المعقّد وغير المعقّد ، والمراد بتعقيد الكلام" أن يعثر صاحبه فكرك في متصرّفه ويشيكُ طريقك إلى المعنى ، ويوعر مذهبك نحوه حتى يقسّم فكرك ، ويشعّب ظنك إلى أن لا تدري من أين تتوصّل ، وبأيّ طريق معناه يتحصّل"[41].

في المقابل يجب على الـمتكلم التعبير عن مكنوناته بالألفاظ المناسبة ، فلا يضيع غرضه بتعقيده وإبهامه ، وذلك: " أن يفتح صاحبه لفكرتك الطريق المستوي ويمهده وإن كان في معاطفَ نصب عليه المنار ، وأوقد الأنوار ، حتى تسلكه سلوك المتبين لوجهته ، وتقطعه قطع الواثق بالنجح في طيته"[42].

4.6 الإفادة والاستحسان(أصل المعنى ، والمعنى المستلزم):

الإفادة شرط أساسي في الخطاب ، ويراد بها"حصول الفائدة لدى المخاطَب من الخطاب ووصول الرسالة الإبلاغية إليه على الوجه الذي يغلب على الظنّ أن يكون هو مراد المتكلم وقصده، ولتتحقّق الفائدة لدى السامع يجب أن تكون العبارة معيّنة ودالة، وإذا فقدت هذين الشرطين فقدت أهمّ شرط في صحّتها ، وهو حصول الفائدة لدى السامع"[43].

إنّ (الفائدة) باب واسع في البلاغة العربية ، وفي الوقت نفسه هي أكبر مقتضيات الاستعمال والقصدية ، ومناط الوظيفة يقول نهاد الموسى:« فممّا لا ريب فيه أنّ النظام اللغوي خُلق للإفادة أي لتبليغ أغراض الـمتكلم للمستمع ؛ فهو آلة التبليغ جوهره تـابع لما ولي مِن أمْر الإفادة»[44] ، وهذا ما يؤكّده الجرجاني من خلال قوله:« فالألفاظ المفردة التي هي أوضاع اللغة لم تُوضع لتُعرف معانيها في أنفسها ، ولكن لأن يُضمَّ بعضها إلى بعض ، فيُعرف فيما بينها فوائد»[45] ، فالفائدة تقتضي وجود ألفاظ مفردة لها معاني معجمية يحدث فيما بينها ضمّ في سياقات مختلفة، باختصار: الفائدة بواسطة الضمّ ، والضمّ يكون عن طريق معاني النحو ومعرفة الوجوه والفروق فيما بين الكلم.

الأمر الذي جعل الجرجاني يتكلّم عن ضربي الكلام ، مع التركيز على الضرب الثاني ؛ "وضرْب آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده ، ولكن يدلّك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض ... وإذ قد عرفت هذه الجملة فهناك عبارة مختصرة ، وهي أن تقول: **المعنى**، و**معنى المعنى** ، تعني بـ (المعنى): المفهوم من ظاهر اللفظ والذي تصل إليه بغير واسطة ، و بـ (معنى المعنى): أن تعقل من اللفظ معنى ، ثم يُفضي بك ذلك المعنى إلى معنًى آخر"[46]، وعلى المتكلم أن يختار العبارة وِفق ما يريد إفهامه المخاطَبَ ؛ عن طريق اللفظ وحده (المعنى الصريح) أو(المعنى الضمني) ، ومن ذلك تحليله العبارة الآتية :(أمّا بعد: فإني أراك تقدّم رجلا وتؤخرّ أخرى) ، فالمعنى هو: التردّد بين الأمرين ، وهذا المعنى لا يُعرف من لفظ (تقدّم ،

وتؤخّر) أو من لفظ(رِجل) ، لكن يُعرف بالمقاصد ، فتارة يكون الغرض هو نفسه معنى ظاهر اللفظ ، وأخرى يكون الغرض ليس هو معنى اللفظ ولكنه معنى يُستدل بمعنى اللفظ (الظاهر) عليه ويُستنبط منه[47].

أمّا السكاكي فنجده يتكلّم عن الإفادة والاستحسان في تعريف علم المعاني، يقول :« هو تتبّع خواص تراكيب الكلام في الإفادة ، وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ، ليحترز بالوقوف عليها عن الخطإ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره ؛ وأعني بتراكيب الكلام: التراكيب الصادرة عمن له فضل تمييز ومعرفة ، وهي تراكيب البلغاء لا الصّادرة عمّن سواهم ، لنزولها في صناعة البلاغة منزلة أصوات حيوانات تصدر عن محالها بحسب ما يتفق ، فعبارة البليغ تختلف عن سواه ومعناها جاريا مجرى اللازم له. لا لنفس ذلك التركيب من حيث هوهو(المعنى الظاهر) ، وهذا ما يجعلنا نفرّق بين التراكيب اللغوية المختلفة مثل: إنّ زيدا منطلق من أن يكون مقصودا به نفي الشكّ أو ردّ الإنكار ، أو من تركيب: زيد منطلق ، من أنه يلزم مجرّد القصد إلى الإخبار أو من نحو: منطلق بترْك المسند إليه من أنه يلزم أن يكون المطلوب به وجه الاختصار»[48]، فالسكاكي يحدّد المفاهيم الإجرائية اللازمة التي تقودنا إلى الاستعمال حين تعمل متآزرة من أجل فهم المعنى ، ويمكن توضيح ذلك من خلال المخطط التالي:

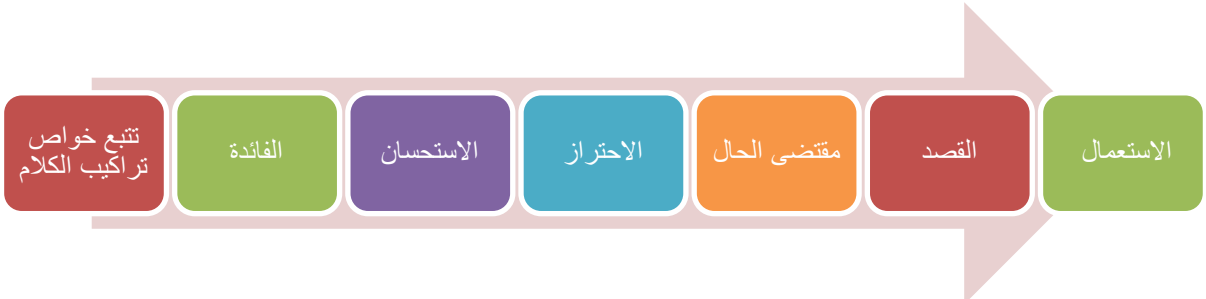

الشكل 2:مخطط توضيحي للمفاهيم الإجرائية اللازمة للاستعمال

ويوضّح السكاكي هذا المعنى فـ" تارة تقتضي ما لا يفتقر في تأديته إلى أزيد من دلالات وضعية وألفاظ كيف كانت ونظم لها لمجرّد التأليف بينها يُخرجها عن حُكْم النعيق ، وهو الذي سميناه في علم النحو" أصل المعنى" (المعنى الحرفي) ونزّلناه هنا منزلة أصوات الحيوانات ، وأخرى تقتضي ما تفتقر في تأديته إلى أزيد (المعنى الاستلزامي)"[49]، حيث يتمّ التفريق بين دلالة الوضع ودلالة الاستعمال بالوسائط والاستدلالات، أو كما يسميها سلسلة اللوازم ، وهي غير محددة ، فقد تكون قريبة أو بعيدة ، ومن نماذج تحليله قوله تعالى:﴿رَبِّ إِنِي وَهَنَ العَظْمُ مِنّي﴾[مريم 4]، فأصل المعنى: الدلالة على الشيخوخة (يا رب قد شخت) ، لكنه اعتمد عدّة استدلالات ، وذلك لأداء غرض معيّن كـ: التقرير ،وطلب شمول الوهن للعظام...وغيره.

5.6 معاني النحو بين بالكفاءة الإبداعية والكفاءة التفسيرية :

لا يقتصر النحو على معرفة الإعراب ، وإنما هو بحث يقتفي المعاني بدءا من الفائدة ، والقصدية ورصد الاستعمالات يقول الجرجاني:«...وإذا نظرتم في الصفة مثلا فعرفتم أنها تتبع الموصوف ، وأنّ مثالها قولك:(جاءني رجلٌ ظريفٌ) و(مررت بزيدٍ الظريفِ) ، هل ظننتم أنّ وراء ذلك علما ، وأنّ هاهنا صفة تخصّص ، وصفة توضّح وتبيّن ، وأنّ فائدة التخصيص غير فائدة التوضيح ، كما أنّ فائدة الشّياع غير فائدة الإبهام ، وأنّ من الصفة صفة لا يكون فيها تخصيص ولا توضيح ، ولكن يُؤتى بها مؤكّدة كقولهم:(أمس الدابرُ) ، وكقوله تعالى:﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾[الحاقة 13] ، وصفة يُراد بها المدح والثناء كالصفة الجارية على اسم الله تعالى جده»[50]، وعلى أساس ذلك قد ميّز بين الكفاءة التفسيرية والكفاءة الإبداعية .

وتتحقّق الكفاءة الإبداعية بمعرفة الوجوه والفروق التي تتعلّق بكلّ باب من أبواب النحو ، يقول الجرجاني:«اعلم أنّ الفروق والوجوه كثيرة ليس لها غاية تقف عندها ، ونهاية لا تجد ازديادا بعدها ، ثم اعلم أن ليست المزية بواجبة لها في أنفسها ، ومن حيث هي على الإطلاق، ولكن تعرض بسبب المعاني والأغراض التي يوضع لها الكلام ، ثم بحسب موقع بعضها من بعض ، واستعمال بعضها مع بعض»[51]، من هنا تصبح الصّحة النحوية والتوجيه الإعرابي مستوى بسيطا يتعدّى إلى مرتبة الفضل والمزية ، "بل ليس من فضل ومزية إلاّ بحسب الموضع ، وبحسب المعنى الذي تريد ، والغرض الذي تؤم"[52] ، وهكذا يُلفت الجرجاني انتباهنا إلى ضرورة التحليل النحوي وفق العناصر الآتية:

- وجوب معرفة المواضع والمواقع في الكلام.
- ضرورة معرفة المقاصد للوصول إلى المعنى.
- تمييز الاستعمالات بعضها عن بعض؛ أي النظر في حال المنظوم بتطبيق مبدأ الملاءمة.
- الكفاءة التفسيرية خطوة تمهيدية للوصول إلى الكفاءة الإبداعية.

"إنّ النظم يكمن إذن في المعاني الناتجة عن العلاقات النحوية وفي المعاني الإضافية التي يستخرجها المتلقي بجهد عقلي ونظر ثاقب ورويّة ...إنه يكمن باختصار في تقابل المعنى الذي قصد إليه المتكلم والمعنى الذي فسّره المتلقي ، أو في تسخير التشكيل اللغوي في كفاءة تفسيرية(لدى المخاطب) للوصول إلى الكفاءة الإبداعية (لدى المتكلم) ، ومن خلال هذا التصوّر ندرك قيمة البناء اللغوي للنص"[53]، ويمكن توضح هذا بالمخطط التالي :

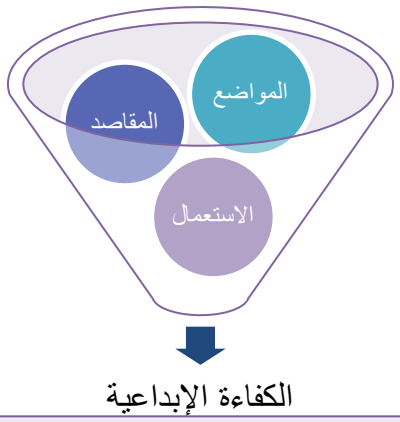

الشكل3: مخطط توضيحي لمكونات الكفاءة الإبداعية

6.6 من جماليات البعد التداولي عند الجرجاني :

تمتزج المكونات اللغوية وغير اللغوية في البلاغة العربية لتشكّل بُعْدا تداوليا جماليا يعكس إلى حدّ بعيد تلاؤم قوانين اللغة مع الاستعمال ، فيصبحان كأنهما وجهان لعملة واحدة ، وفيما يلي بعض الأمثلة التي تدلّ على ذلك:

- **لُعَابُ الأَفَاعِي القَاتِلاَتِ لُـعَابُهَ ✂ وَ أَرْيُ الـجَنَى اشْتَـارَتْهُ أَيْدٍ عَوَاسِلُ**

يقول الجرجاني:« فإنّ هاهنا استدلالا لطيفا تكثر بسببه الفائدة ، وهو أنه يتصوّر أن يعمد عامد إلى نظْم كلام بعينه فيزيله عن الصورة التي أرادها الناظم ويفسدها عليه ، من غير أن يحوّل منه لفظا عن موضعه ، أو يبدّله بغيره ، أو يغيّر شيئا من ظاهر أمره على حال . فإذا قدّرت أنّ (لعاب الأفاعي) مبتدأ ، و (لعابه) خبر ، كما يوهمه الظاهر ، أفسدت عليه كلامه وأبطلت الصّورة التي أرادها فيه . وذلك أنّ الغرض أن يشبّه مداد قلمه بلعاب الأفاعي ، على معنى أنه إذا كتب في السياسات أتلف به النفوس ، وكذلك الغرض أن يشبّه مداده بأري الجنى على معنى أنه إذا كتب في العطايا والصّلات أوصل به إلى

النفوس ما تحلو مذاقته عندها ، وأدخل السّرور واللّذة عليها . وهذا المعنى إنما يكون إذا كان (لعابه) مبتدأ ، و (لعاب الأفاعي) خبرا. فأمّا تقديرك أن يكون (لعاب الأفاعي) مبتدأ و (لعابه) خبرا ؛ فيبطل ذلك ويمنع منه البتّة ، ويخرج بالكلام إلى ما لا يجوز أن يكون مرادا في مثل غرض أبي تمام ، وهو أن يكون أراد أن يشبّه (لعاب الأفاعي) بالمداد ، ويشبّه كذلك (الأري) به»[54]، فالذهاب بالقصد والخطأ في التقدير يفسدان الكلام إذا تمّ الاعتماد على ما يوهمه الظاهر.

-كَأَنَّ مُثَارَ النَّقْعِ فَوْقَ رُؤُوسِنَا ❊ وَ أَسْيَافَنَا لَيْلٌ تَهَاوَى كَوَاكِبُهُ

هنا تجتمع المقاصد ومعاني النحو لتعطي معنى دلاليا ، فيستحيل أن يكون بشّار قد أخطر معاني هذه الكلِم بباله أفرادا عارية من معاني النحو ؛ أي يستحيل أن يكون قد توخّى اللفظ دون القصد "وأن يكون قد أوقع (كأنّ) في نفسه من غير أن يكون قد قصد إيقاع التشبيه منه على شيء ، وأن يكون فكّر في (مثار النقع) من غير أن يكون أراد إضافة الأوّل إلى الثاني ، وفكّر في (رؤوسنا) من غير أن يكون قد أراد أن يضيف (فوق) إلى (الرؤوس) ، وفي (الأسياف) من دون أن أراد عطفها بالواو على (مثار) ، وفي (الواو) من دون أن يكون أراد العطف بها ، وأن يكون كذلك فكّر في (ليل) من دون أن يكون أراد أن يجعله خبرا لـ (كأن) ، وفي (تهاوى كواكبه) من دون أن يكون أراد أن يجعل (تهاوى) فعلا للكواكب ، ثم يجعل الجملة صفة لليل ، ليتمّ الذي أراد من التشبيه ؛ أي إنما خطرت هذه الأشياء بباله مرادا فيها هذه الأحكام والمعاني"[55]، وبالتالي يصبح المعنى النحوي تعبيرا عن المقاصد ، ولو استعمل غيره استحال.

- لَقَدْ طَلَبْنَا فَلَمْ نَجِدْ لَكَ فِي السُّؤْ ❊ دُدِ وَالمَجْدِ وَالمَكَارِمِ مِثْلاَ

يتأسّس التقدير على صحّة المعنى و ملاءمة الغرض الموضوع له الكلام مما ينطوي على معنى دقيق وفائدة جليلة ، فهناك عاملان لمعمول واحد (التنازع) ، والعاملان هما (طلبنا ، ولم نجد) ، والمعمول هو المفعول به (مثلا) والمعنى : قد طلبنا لك مثلا ، ثم حذف ؛ لأنّ ذكره في الثاني يدلّ عليه ، فقد أعمل الثاني بحسب الغرض الذي يريده الشاعر ؛ إذ يقصد إلى المدح ، وهذا المعنى يتحصّل بنفي وجودِ مثله حتى ولو طلبنا ذلك ، فقوله(طلبنا ذلك) تأكيد لنفي وجود أحد مثله في السؤدد والمجد والمكارم ، ولو أعملنا الأوّل لانتفى الغرض وفسد المعنى الذي أراده الشاعر ، فالمعنى نفي وجود المثل لا طلب المثل[56]، وبذلك يضع حلاّ للمسألة الخلافية بدخول مبدأ القصدية في الإعمال ليتحقق المعنى الصحيح بالاستعمال الصحيح.

7. خاتمة:

بعد الخوض في غمار هذا الموضوع (القصدية والاستعمال في الخطاب البلاغي بين الأصالة والإبداع - دراسة بينية-) يمكننا أن نسجّل أهمّ النتائج والملاحظات فيمايلي :

- ✓ يجب رسم صورة واضحة المعالم عندما نريد تبيين صلة التراث العربي القديم بالدراسات الحديثة وذلك في إطار قراءة واعية لما توارثناه من رصيد لغوي دون إسقاط أو نظرة تقديسية أو دونية.
- ✓ عملية إحياء التراث العربي القديم بآليات لسانية هي لبنة من لبنات إرساء دعائم دراسة عربية متأصّلة من أجل إثراء الدرس اللغوي بالكشف عمّا يحتويه ذلك التراث من آراء متقدّمة متطوّرة.
- ✓ إنّ(المتكلم ، والسامع) جوهر الأدوات الإجرائية في إنتاج النص وفهمه ، فالأوّل يؤلّف المفردات باستخدام مبدأ القصدية بغية تحقيق الفائدة للمخاطب ، والثاني يعمل على تهيئة الآليات التي تساعده على فهم تلك المقاصد .

- ✓ يعدّ مبدأ(الفائدة) ، من المبادئ الهامة في إقامة التواصل بين طرفي الخطاب ، ذلك أنّ من شروط أيّ لغة أن تحقّق الإفادة للسامع دون تشويش أو إخلال ، وذلك إنما يتمّ في ضوء الاستعمال اللغوي .
- ✓ ترتبط المنفعة بقدر الاحتياج الذي يوافق الأحوال ، ثم يأتي المقال بحسب ذلك في شكل تسلسلي ينبئ عن تنظيم العملية التواصلية ، والوعي التام بقوانين التخاطب، هكذا كان فهْم البلاغيين للغة فهْما عميقا .
- ✓ يستخدم علماء البلاغة مبدأ القصدية في إطار الحكم على النص من جهة الفصاحة، فيرتفع شأن الكلام ويحسن أو يقبح ، فالفصاحة تابعة للمقاصد ، والمقاصد آلية الاستعمال الصحيح .
- ✓ أكّد البلاغيون على ضرورة مراعاة المقام ، فصاغوا بذلك قاعدة عامة تتمثل في" مطابقة الكلام لمقتضى الحال" إيمانا منهم بالاتصال الوثيق بين التراكيب والمقامات التي تنتج فيها فـ" لكلّ مقام مقال "، فلابدّ من وجود العنصر الاجتماعي (المقام) الذي قوامه التدقيق في الاستعمالات المختلفة لا المعيار من أجل الوصول إلى المعنى الذي تحمله التراكيب بشكل واضح .
- ✓ على اعتبار أنّ(المعنى) هو الركيزة التي ينبغي الوصول إليها في معالجة أيّ لغة ، فذلك يوجب الالتفات إلى جميع العناصر غير اللغوية كـ: المتكلم ، والسامع، والملابسات، بوصف اللغة في إطار الواقع الاستعمالي ، وليس نظاما من القواعد المجرّدة فقط .
- ✓ ضابط تمييز التراكيب اللغوية موكول إلى معرفة قصد المتكلم ، مما يبرهن دقّة تصوّرهم للظواهر اللغوية وارتباطها بالاستعمال، وبذلك تصبح اللغة امتدادا لا نهاية له من الوظائف بالتركيز على جانبها الاجتماعي والاستعمالي الذي يتصف بكونه إجرائيا انطلاقا من جانبها النفسي التأسيسي .
- ✓ إنّ قيمة الاستعمال تظهر في كونه شرطا أساسيا في الحكم على الكلام بصوابيته أو خطئه وبحسن التدبير من إزالته ، و ليكون فارقا بين الحقيقة والمجاز أولا، و من أجل إصابة المعنى بيّنا واضحا ثانيا .
- ✓ يحدّد السكاكي يحدّد المفاهيم الإجرائية اللازمة التي تقودنا إلى الاستعمال حين تعمل متآزرة من أجل فهم المعنى بدءا من تتبع خواص التراكيب ، والانتقال إلى الفائدة ، والاستحسان والاحتراز ومقتضى الحال ، والقصد.
- ✓ الاستعمال هو وسيلة وغاية في نفس الوقت؛ وسيلة من أجل تحقيق الفائدة ، ليُصبح فيما بعد غاية حين يكون صحيحا دقيقا مستوفيا للمعنى باجتماع تلك العناصر (قدْر الافتقار ، والقصد والانتقاش ، والتمكّن .
- ✓ أخرج الجرجاني اللغة من مجال المواضعة إلى الاستعمال بواسطة النظم ، ومن مستوى الصحة إلى المزية والتفاضل من خلال التطبيقات المختلفة في الأساليب اللغوية كـ: التقديم والتأخير ، والنفي والإثبات ...وغيرها، مما يؤكّد البعد التداولي في دلائل الإعجاز.
- ✓ يحدّد الجرجاني طرق إثبات المعنى بضرورة استيفاء مجموعة من الضوابط ممثلة في مراعاة المقاصد ومعرفة المواقع ، ومواطن الاستعمال ، وبذلك تتحقّق الكفاءة الإبداعية.

- ✓ فكرة الوجوه والفروق هي تأكيد لاجتماعية اللغة بين الوظيفة والاستعمال ، حيث تتوفّر عندنا أشكال تعبيرية خاصة ومعاني بلاغية مختلفة .

8. توصيات:.

-توظيف النظريات اللسانية بما يخدم البلاغة العربية مع احترام خصوصيتها وإطارها المعرفي في ضوء الدراسات البينية التي تستهدف التكاملية.

-إنشاء هيئات مختصّة لإعادة الموروث البلاغي في جوانبه المختلفة المصطلحية، والمفهومية والمنهجية تطويرا وارتقاءً.

-ضرورة التركيز على دراسة الشواهد المذكورة في كتب البلاغة دراسة إجرائية لارتباطها بنظرية الاستعمال.

-العودة إلى معيار (الذوق) الذي تبنى عليه نظرية الاستعمال ، ودفع الإشكالات الواردة عليه لاسيّما تلك التي تقزّم من قيمته المعرفية.

-التأكيد على الربط بين البنية وتأدية الدلالة من أجل الوصول إلى مستويات التواصل المختلفة في إطار التفسير العقلي ، والاجتماعي ، والنفسي، كما فعل البلاغيون في ممارساتهم .

9. قائمة المراجع:

- **المؤلفات:**

1) ابن سنان الخفاجي. (1953). سر الفصاحة . مكتبة محمد علي صبيح.
2) أبو هلال العسكري. (1953). الصناعتين. منشورات عيسى البابي الحلبي.
3) الجاحط. (د ت، ج1). البيان والتبيين ، تح محمد عبد السلام. بيروت ، لبنان: دار الجيل.
4) الجاحظ. (1969). الحيوان. ط3، ج3، تح محمد عبد السلام هارون، بيروت ، لبنان: دار الكتاب العربي.
5) الخطابي. (د ت). بيان إعجاز القرآن، تح محمد خلف ،ط3. مصر: دار المعارف.
6) السكاكي. (2000). مفتاح العلوم. ط1، تح ،عبد الحميد هنداوي ، بيروت ، لبنان: دار الكتب العلمية.
7) الوعر مازن. (1988). قضايا أساسية في علم اللسان. سوريا: دار طلاس للدراسات.
8) بهاء الدين السبكي. (2001). عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح. تح، خليل ابراهيم خليل ، ط1، ج1، ، بيروت ، لبنان: دار الكتب العلمية.
9) تمام حسان. (1998). اللغة العربية معناها ومبناها. ط3،القاهرة ، مصر: عالم الكتب.
10) تمام حسان. (2000). الأصول دراسة ابستمولوجية للفكر اللغوي عند العرب. القاهرة، مصر: عالم الكتب.
11) حازم القرطاجني. (دت). منهاج البلغاء وسراج الأدباء. ط3، تح، محمد الحبيب ابن الخوجة، بيروت، لبنان: دار الغرب الإسلامي.
12) حسن طبل. (1998). المعنى في البلاغة العربية. ط1، القاهرة، مصر: دار الفكر العربي.
13) سعيد حسن بحيري. (دت). دراسة لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة. القاهرة، مصر: مكتبة زهراء الشرق.
14) طارق النعمان. (2013). اللفظ والمعنى بين الإيديولوجيا والتأسيس المعرفي للعلم. القاهرة ، مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

15) عبد العزيز حمودة. (1978). المرايا المقعرة . الكويت: عالم لمعرفة.
16) عبد القاهر الجرجاني. (2005). دلائل الإعجاز. ط1، اعتنى به علي محمد زينو، بيروت، لبنان: مؤسسة الرسالة.
17) عبد الهادي بن ظافر الشهري. (2004). استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية. ط1، بيروت ، لبنان: دار الكتاب الجديد المتحدة.
18) محمد حماسة عبد اللطيف. (دت). النحو والدلالة. الكويت: دار الكويت.
19) مسعود صحراوي. (2005). التداولية عند العلماء العرب . بيروت ، لبنان: دار الطليعة.
20) مسعود صحراوي. (، 2004/2003). الأفعال المتضمنة في القول بين الفكر المعاصر والتراث العربي. الجزائر، أطروحة دكتوراه ، جامعة باتنة.
21) موسى بن مصطفى العبيدان. (2002). دلالة تراكيب الجمل عند الأصوليين . ط1، دمشق، سوريا: دار الأوائل للنشر والتوزيع.
22) نهاد الموسى. (1987). نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث. ط3، الأردن: دار البشير للنشر والتوزيع.
23) هادي نهر. (2011). اللسانيات الاجتماعية عند العرب. ط1 ، عمان، الأردن: دروب للنشر والتوزيع.

- **المقالات:**

24) ابتسام أحمد حمدان. (جامعة سمنان ، إيران, 2010). أسس نحوية ولغوية في التفكير البلاغي عند الجرجاني. ع3، مجلة دراسات في اللغة العربية وآدابها.
25) رشيد بلحبيب. (1999). أثر العناصر غير اللغوية في صياغة المعنى. مجلة اللسان العربي، 23(47).

10. هوامش البحث:

[1] مازن الوعر ، قضايا أساسية في علم اللسان ، دار طلاس للدراسات والترجمة، ط(1988)، سوريا ، ص 88.
2 محمد حماسة عبد اللطيف ، النحو والدلالة ، دار الكويت ، الكويت ، ط1 ، ص 25.
3 عبد العزيز حمودة ، المرايا المقعرة ، عالم المعرفة ، يناير(1978)، الكويت ، ص 247.
4 جمال الدين مصطفى ، البحث النحوي عند الأصوليين ، مكتبة بغداد ، دون ط، بغداد ، ص 258 وما بعدها . وينظر: هاشم الطبطبائي ، نظرية الأفعال الكلامية بين فلاسفة اللغة المعاصرين والبلاغيين العرب ، مطبوعات جامعة الكويت ، ط(1994)، الكويت ، ص47 ، وينظر أيضا: مسعود صحراوي ، التداولية عند العلماء العرب ، دار الطليعة ، بيروت ، لبنان ، ط1 (2005) ، ص57.السكاكي: مفتاح العلوم ، تح عبد الحميد هنداوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان ، ط1(1420هـ 2000م)، ص251.
5 أبو هلال العسكري ، الصناعتين ،تح علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل ابراهيم ، منشورات عيسى البابي الحلبي،ط1(1952)، ص 21.
6 المرجع نفسه ، ص 135.
7 المرجع نفسه ، ص 190.
8 المرجع نفسه ، ص 268.
9 ابن سنان الخفاجي ، سر الفصاحة ، صحّحه عبد المتعال الصعيدي ، مكتبة محمد علي صبيح ، ط (1952)، ص 39.
10 مسعود صحراوي ، الأفعال المتضمنة في القول بين الفكر المعاصر والتراث العربي ، مخطوط رسالة دكتوراه ، جامعة باتنة (2003- 2004) ،ص 178.

11الجاحظ ، البيان والتبيين ، تح محمد عبد السلام هارون ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان ، دون ط ، ج 1 ، ص76.
12 الخطابي ، بيان إعجاز القرآن ، تح محمد خلف ، دار المعارف، مصر ، ط3 ، دت ، ص 29.
13 طارق النعمان ، اللفظ والمعنى بين الإيديولوجيا والتأسيس المعرفي للعلم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، مصر ط(2013)، ص 286.
14 ينظر: هادي نهر ، اللسانيات الاجتماعية عند العرب ، دروب للنشر والتوزيع ، عمان ، الأردن ، ط(2011)، ص 180.
15 ينظر: تمام حسان ، اللغة العربية معناها ومبناها ، عالم الكتب ، القاهرة ، مصر ، ط3 (1998)، ص 337.
16 المرجع نفسه ، ص 372.
17 تمام حسان ، الأصول دراسة ابستمولوجية للفكر اللغوي عند العرب ، عالم الكتب ، القاهرة ، مصر ، ط (1420هـ 2000م)، ص 304.
18 ينظر: تمام حسان ، اللغة العربية معناها ومبناها ، ص 342-346.
19 ينظر: المرجع السابق ، ص350/ 351.
20 عبد اللطيف حماسة ، النحو والدلالة ، ص 113.
21 الجاحظ ، الحيوان ، تح محمد عبد السلام هارون ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، ط 3 (1388هـ 1969م) ، ج3 ص39.
22 السكاكي ، مفتاح العلوم ، ص 256.
23 حازم القارطاجني ، منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، تح محمد الحبيب ابن الخوجة ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ط3، ص 13 /14.
24 حسن طبل ، المعنى في البلاغة العربية ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، مصر ، ط1 (1418هـ - 1998م)، ص74.
25 الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج1 ، ص 116.
26 ينظر: موسى بن مصطفى العبيدان ، دلالة تراكيب الجمل عند الأصوليين ، دار الأوائل للنشر والتوزيع ، دمشق ، سوريا ط1(2002) ، ص27.
27 ينظر: رشيد بلحبيب ، أثر العناصر غير اللغوية في صياغة المعنى، ، مجلة اللسان العربي ، ع47، 1990، المغرب ، ص 240.
28 عبد الهادي بن ظافر الشهري ، استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، بيروت ، لبنان ط1(2004) ، ص 183/182.
29 ينظر:ابتسام أحمد حمدان ، أسس نحوية ولغوية في التفكير البلاغي عند الجرجاني ، مجلة دراسات في اللغة العربية وآدابها جامعة سمنان ، إيران ، العدد3 ، (2010) ، ص 27/26.
30 سعيد حسن بحيري، دراسة لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة ، مكتبة زهراء الشرق ، القاهرة ، مصر ، دون ط ، ص 178.
31 الجرجاني ، دلائل الإعجاز ، اعتنى به علي محمد زينو ، مؤسسة الرسالة ، بيروت، لبنان ، ط1(1426هـ - 2005م) ص57.
32 ينظر: سعيد حسن بحيري ، دراسة لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة ، ص 189 .
33 الجرجاني ، دلائل الإعجاز، ص 386.
34 سعيد حسن بحيري ، دراسة لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة ، ص191.
35 المرجع نفسه ، ص 173.
36 ينظر: السكاكي ، مفتاح العلوم ، ص 258 /259.
37 الجرجاني ، دلائل الإعجاز ، ص 345.
38 المصدر نفسه ، ص 235.
39 بهاء الدين السبكي ، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح ، تح خليل إبراهيم خليل ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ط1 (1422ه--2001م) ،ج1 ، ص212 .
40 ينظر: رشيد بلحبيب ،أثر العناصر غير اللغوية في صياغة المعنى، ص 235.

41 السكاكي، مفتاح العلوم، ص 526 /527..
42 السكاكي ، مفتاح العلوم، ص 527.
43 مسعود صحراوي ، الأفعال المتضمنة في القول بين الفكر المعاصر والتراث العربي ، ص 263/262.
44 نهاد الموسى ، نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث- دار البشير للنشر والتوزيع ، الأردن ، ط2 (1408هـ- 1987م) ، ص 95.
45 عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز، ص393.
46 المصدر نفسه ، ص199 /200.
47 ينظر: المصدر نفسه ، ص 318 /319 .
48 ينظر: السكاكي ، مفتاح العلوم ، ص 248/247.
49 ينظر: المصدر نفسه ، ص 514/397.
50 الجرجاني ، دلائل الإعجاز ، ص43.
51 المصدر نفسه ، ص 81.
52 المصدر نفسه ، ن ص .
53 سعيد حسن بحيري ، دراسة لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة ، ص 192 / 193.
54 الجرجاني ، دلائل الإعجاز ، ص 271 /272.
55 ينظر: المصدر نفسه، ص 298 /299 .
56 ينظر : المصدر نفسه ، ص 135 .